الثورة في الأدب الجزائري (الشعر)

ربما يكون قد تحول الانتاج الشعري القليل (والغامض) خلال المقاومة الشعبية إلى رصيد مهم للأجيال اللاحقة. وهو قليل فعلا، لكنه غامض أيضا لأسباب مختلفة:

-لأن الأصوات أخمدت أمام آلة الدمار والوحشية،

-لأن ما يفترض به أن يكون مرافقا للمقاومة غير متوفر كثيرا،

- لأن ما لدينا منه ينتمي بحكم تركيبه الفني إلى عصر الضعف وشروطه،

- لأن جزءا منه هو أدب شعبي اختزنته الذاكرة ورددته الشفاه (*سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 324/8*).

في قصيدة عاصرت احتلال الجزائر وضاعت ترجمها (توماس كامبل ثم ابو القاسم سعد الله) تحت عنوان "رثاء الجزائر"، يقول الشاعر المجهول (*سعد الله: دراسات في الادب الجزائري الحديث، ص: 16*):

الجزائر، كانت منصورة وأميرة،
مَن يُضمد الآن الجراح التي تعانيها،
إن قلبَها نهر من الدموع،
أواه: **سأضحي بحياتي من أجل المنقذ الجزائري**
الذي يسحَق الصليب من سواحلنا،
ويُعيدُكَ، حرا، يا وطني، الجزائر!

ويواصل البكاء المر ووصف المأساة والعار والتمزق ورغبته في الرحيل، لكنه ينهي نصه بالأمل في الله ورحمته. لكن يستوقفنا في القطعة إحساس الشاعر العميق بالوطنية والانتماء، وكذلك تطلعه إلى زعيم يوحد الشعب على عمل تحريري ما. وسنقرأ نفس معاني في قصيدة محمد ابن الشاهد المعاصر للأحداث هو الآخر (*سعد الله: تجارب في الرحلة والأدب، ص: 113*) والتي امتلأت بالبكاء على الوطن وبوصف الدمار الذي حل به والذل الذي لازم أهله، وينهيها بقوله:

فـآهٍ على جهدي وما بِـيَ مَنعةٌ وآهٍ على دارٍ يَسُـودُ بــها غَـــــيْرِي
أَموتُ وما تَدري البَوَاكِي بقِصتي وكيفَ يَطيبُ العيش والأنسُ في الكُفر
فيا عينُ جُودي بالدموعِ سَمَاحَةً ويا حُزنُ شَيِّـــدْ في الفؤاد ولا تَسْـــرِ
ويا صاحِ تَدبيـرُ الأمورِ لخالقي **فَصبْـــرًا عَسَى عُسرٌ يُبَـدّلُ باليُسر**

فعلا، بقي اللجوء إلى الله والتعلق بأمل في هبّة لدحر المحتل. ولم يطل الحال حتى بدأت حركات مقاومة مسلحة متتابعة. وظهرت شخصية الأمير عبد القادر كزعيم وسياسي وشاعر وصوفي ومقاوم، وإذا كان خط النهضة العربية

عرف في بداياته تقليدا للتراث العربي واستنساخ نصوصه القديمة فإن الأمير عبد القادر قد عاش أحداث عصره ووقائع معاركه رفقة كبار الشعراء المحاربين أمثال أبي فراس وعنترة والمتنبي ونحوهم، فشكّلوا تراثه ووصف وقائع مقاومته لفرنسا وفق البنية الفنية التي استعملها أسلافه هؤلاء. يقول (*الديوان ص: 47*):

.. سَلُوا تُخْبِــرْكمُ عنا فرنسا وَيَصدُقُ إنْ حَكَتْ منها المقالُ

فكَمْ لي فيهمُ من يوم صِدقٍ بِـه افتخَـر الزمانُ، ولا يـــزالُ

والقصائد القليلة التي ارتبطت بصراعه مع المستعمر تندرج ضمن الفخر التقليدي أكثر من موضوع المقاومة والثورة التي مارسها فعلا كقائد ومجاهد، ويبدو أن هذه الصورة قد رسخت في الأذهان، لأن الشاذلي القسنطيني أرسل إلى الأمير يستنجده (*إذا صحت نسبة القصية له حسب سعد الله، ينظر كتابه: الشاذلي القسنطيني، ص:71*)، ويقول:

وبَلِّغْ له شَكْــوى قسنطينةٍ بمـا يَسُـوءُ ذَوي الأحلام والله يشهدُ

.. هلُـمَّ لنا يا ابنَ الرسول فإننَـــا بِـذُلّ وخُسرانٍ ونَصـرَك نَقصِــدُ

وبَادِرْ لِقمعِ الكفرِ يا ابنَ نَبينَـا عَسَى نَفحَةٌ من عندِ جَدِّكَ تُنجدُ.

ومثل هذا الشعر تأسس على الرصيد التراثي من قصائد الاستنجاد وسقوط الدول والمدن.

إن بداية الحركة الوطنية والاصلاحية هي بداية فعلية لشعر النضال. وقد يكون من أوائل النصوص التي بدأت تنشر دعوات للتحريض والمقاومة قصيدة مطولة لمحمد السعيد الزاهري (*المنشورة في جريدة الجزائر، عدد 1 سنة 1908*)، منها:

.. فيا وَيحَ قومي كَمْ يعضُّ عليهمُ من الفقر أنيابٌ وأنيابُ إقـلال

.. وَيا وَيحَ أحرارَ الجزائر كَم وكَمْ يَـهيجُ عليهم مِن همومٍ وبَلبـال

لقدْ كَسَـرَ الناسُ القيـودَ وحَطَّـموا ونحنُ بَقِينا في قُيودٍ وأغـلال

.. وأَصبحَ هذا النـاسُ أحياءَ كلَّهمُ ونحنُ بقِينا اليومَ في زيِّ تمثال

فما أحَـــدٌ منا يُحَـــركُ ساكـــنًا لَدَى نُوَبٍ تَغشَى البلادَ وأهوال

إن فكرة كسر القيود والدعوة إلى التحرك مضمون تحريضي متقدم. لكن كل هذه المحاولات لم تعبر عن المضمون الثوري المقصود بالمصطلح الدقيق، وذلك أمر طبيعي؛ لأن الحركة الوطنية كانت في بدايتها ولم يكن الوعي الوطني قد هيمن على العقول. ومع تطور الأحداث تصاعدت لهجة الشعراء، ***فأبو اليقظان*** (*1888–1973*) كتب قصيدته "مدارج الخلاص والتحرير" ونشرها في جريدة إبراهيم اطفيش الجزائري تلميذ المجاوي (المنهاج) الصادرة بمصر، ومنها (*شعراء الجزائر: السنوسي، 116/1 وما بعدها*):

ابْنِ صَرحَ المجدِ عن أُسِّ الضحايا وأَشِـدْ عَـرشَ العُلا رَغـــمَ البلايا

خُضْ غِمارَ الهَـولِ غَـوْصاً إنمـا لُؤلُؤُ التِّيجـان في بَحـرِ المنايـا

إنَّ في المــوتِ لِطُــلاَّبِ العُـــلا لَحَيَـــاةٌ، لا حَيَا أهْـلِ الدَّنَـايا

إنمـا الدنــيا جهــادٌ مَــنْ يَنَـمْ **يومَــه، داسـتْــه أقْــدامُ الــــرَّزايا**

ولِـنَـيْـلِ الحَـــق أدوار غَـــدَتْ **خُطُـــواتٌ جَـــازها كــلُّ البَـــرايا**

فَـأَنِـيـنٌ، فَكَـــلامٌ، فصِـــيَـاحٌ **فَـخِـصَـامٌ، فَـجِـلادٌ، فسَــــــرايا**

وثَبَـــاتٌ للمَعَـــالي، وثَبَـــات للعَـــوالي وخِصَـــالٌ وَمَـــزايا

لَـيسَ حُكْـمُ النَّفـيِ والسجنِ ولا **الحُكْـمُ بالشَّنقِ لـهُ، إلا مَطَـــايا**

أَيُّ شعـــبٍ نَـــال ما نَـــال إذا **لَـمْ يُقَــدِّم سَلَـفًا تلـكَ الهَـدايا**

أَيُّ شعـــبٍ نـــال حُـرِّيَـتَـــه **وَهْـوَ لـمْ يـطلع لها تلكَ الثَّـــنايا**

وهي بالفعل قصيدة رائدة واستشرافية لمسار الأحداث، يتشكل نظامها الفكري من إيمان جازم بضرورة التضحية من أجل الحرية، إذ يهيمن حقل دلالي بارز على النص، يتكون من (الضحايا، الهول، المنايا، الموت، الجهاد، الأنين، الصياح، العوالي، النفي، السجن، الشنق،..) وهي كلها من لغة الثورة، تعودنا وجودها وترددها في قصائد شعراء فترة الثورة. إن الأبيات الثلاثة الأخيرة تضمر وجهة نظر الشاعر وتختصر كل ما سبقها، فالعذاب والأم هو السبيل الوحيد إلى الحرية.

لكن الشاعر يحس أن ما قاله يحتاج إلى تعميق الوعي به وترسيخه، ولهذا يسخر باقي القصيدة ليكشف ألاعيب الاستعمار الغربي كله، وليدل على أن المطالبة السياسية غير مجدية، يقول:

إنّ أهلَ الغربِ خَطّوا خُطّةً لِبَني الشرق بَدَتْ منها خفايا

بَـدَتِ البغضاءُ من أفواهِهم وهيَ عُنوانٌ علَى ما في الطَّوايا

.. زَعَمُوا أنـهمُ رُسْـلُ سَــــــلاَـــــــــــمٍ، وهُمُ غَرقَى بأوحال الخطايا

سَفَّهُوا أحلام (ويلسونَ) وقـد كان روحُ السلم في تلكَ الوصايا

أرسلوا الرسْلَ على تَمدينهم قـــوة النار وأهـــوال الشظايا

وبأيدي هادِمِي (باستيلِهم) هَدَموا في الشرقِ هاتيكَ البقايا

.. حَرَّروا الزنجَ ولكنْ سَخَّـــروا **أُمَـــمَ الشرق عبيدا وسبايا**

لا تَتِــهْ يا غَــربُ فالظلمُ له أَمَــدٌ إن حَـلَّ حلَّــتك بلايا

فبَنُــوك الصُّمُّ عاثوا وبَغَــوْا فأثاروا عنهُـــــمُ كلَّ الرعايا

.. فَلَكَمْ شَعبٌ ضَعيف هَبَّ مِن نَومِه وَافَتــه أصنافُ التحايا

فإذا جاهَـــــــد في استقلاله مُستميـــتا نالَ أنواع العطايا

وإذا قَـــدَّمَ مَهْـــرًا غاليَـــا قَدّمُـــوا حينًا له تلكَ الخطايا

وإذا ما نَصَـبوا حُـكمَ القَضا فَنَّـــدَتْ حُجَّتُه كلَّ القضايا

إن لِلحقِّ زَئيــــــرا إن بَـــدا   فَرَّ منه الخَصمُ في قَعر الزوايا

إنّ لِلحَـــــق لَسُلطَـــانا إذا   خَـفَقَـتْ رايتُـــــهُ أَبْـدَى المزايا

كل الادعاءات إذن تمويه وزيف، بل إن الغرب يضمر خطة خبيثة للشرق وأهله، ولا يتصرف إلا وفق مصالحه، ولا علاقة بين أفعاله وخطابه. فليسوا رسل سلام لأنهم أبطلوا مباديء ولسون التحريرية، وادعوا التحضر والعمل على تمدين الشعوب لكنهم أرسلوا جيوشهم ترتكب المجازر، وينتبه إلى مسألة مهمة، إن الذين هدموا سجن (الباستيل) وقاموا بالثورة الفرنسية وروجوا للجمهورية ومباديء (الأخوة والعدالة والحرية) هم من جاء لهدم الشرق، وإذا كانوا قد حرروا العبيد لسبب ما فإنهم بالمقابل استعبدوا الشرق كله. وينتقل إلى المضمون الثوري فيخاطب الغرب المحتل مباشرة، ويذكره أن الظلم مهما اشتد، وأن غفوة الشعوب مهما طالت، فإن الغشاوة ستزول وسيهب الشعب ليجاهد ويقدم الثمن الغالي ليسترد كرامته وحريته، وفي تلك اللحظة التي يزأر فيها الحق وتخفق راياته فإن الباطل سواه سيندحر.

يرى أبو القاسم سعد الله أن فشل المؤتمر الاسلامي 1936 "*كان نقطة انطلاق كبيرة في تاريخ الكفاح الجزائري*" نظرا لآثاره ونتائجه (*سعد الله: دراسات في الادب الجزائري الحديث، ص: 41*). إنها مرحلة اتجه فيها الشعر إلى الدعوة إلى الوطنية والوحدة وأخذ يواجه العدو صراحة ويبشر بطاقات الجزائر الكامنة، ثم كانت مرحلة من أحداث 8 ماي 1945 إلى اندلاع الثورة التحريرية (*م س، ص:42- 43*).

<u>هذه مرحلة تمتد إلى انطلاق الثورة، وقد تشكلت خلالها عدة عناصر غذت الضمير الوطني وميزت شعر الفترة:</u>

- ارتفاع لهجة المطالبة بالحقوق،
- فضح جرائم الاستعمار وتجاوزاته، والتأكيد على فشل المحاولات السياسية وعلى تعنت فرنسا،
- التعمق في إبراز معالم الهوية الجزائرية والتركيز على فصلها عن الهوية الفرنسية باعتماد عنصر التاريخ ومكونات الهوية الجزائرية،
- مواصلة الدعوة إلى الوحدة والجهد والعمل،
- الاسهاب في التغني بالجزائر وطبيعتها.
- دعوة البعض إلى الكفاح المسلح صراحة أو رمزا.

كتب محمد العيد آل خليفة (*1904- 1979*) (*الديوان، ص: 138 وسعد الله، م س ص: 42*):

وَهَبْتُــكِ روحِي يا جزائرُ فَـأْمُـري   كما شِئْتِ، إني خاضعٌ لكِ خادمُ

حِمَاكِ ربيعٌ لي، وإن كـان جامِحًا   عَلَـيَّ وهلْ يُصْلِي خَليلَكِ جاحِمُ؟

وقُرْبَــاكِ هُم قُربَــايَ لســتُ مُباليا   أَعَاريبُ همْ في جنسِهم أم أعاجِـمُ

فَخُذْ من دَمي يا ابنَ الجزائرِ إنّني   أخٌ لَـكَ في كلّ الحُظــوظِ مُقاسمُ

لقد تبلور إذن مفهوم التضحية في سبيل الوطن فهو ربيع حتى ولو كان محرقا، والمطلوب هو الوحدة والتضحية المشتركة. وفي رباعيات كتبها أحمد بن ذياب (*1914-....*) نشرتها البصائر (*سنة 1938، عدد99، ص: 7*) يقول فيها:

أُبَـاةَ الجزائرِ هَـذي الجُـدود   تَـهِيبُ بِكُــــم للعُـلا والخلود

فَهَلْ مِـنْ سَـميعٍ لِوَقْع النِّـدا   وهَل مِن مُلَبٍّ لِصوت الجدود

فَهــيَّا بنا لِلْوَغَـى والنضـال   فما نحن إلا ضَـــحايا الزمنْ

أُولئِــكَ آبـــاؤُنا في اللُّحُود   قَضَـوْا شهداءَ مآســي الوطن..

وهذه دعوة صريحة للعمل الثوري المسلح، بل إن الشاعر يريد ربط الشعب بتراثه في التضحية والكفاح، فليس الوطن مجرد حضارة وتاريخ (وهو ما شكل برنامج الحركة الاصلاحية والتنويرية) بل إنه كذلك ميراث من التضحية والأجداد الشهداء ينادون لمواصلة الجهاد.

إن بعض النصوص في أواخر الثلاثينات وخلال الأربعينيات جاهرت صراحة بمطلب الاستقلال والثورة، **وتبنت خطابا ثوريا**. ففي 1936 كتب مفدي زكرياء (*1908-1977*) نشيده الشهير لحزب لنجم شمال إفريقيا (صار فيما بعد نشيدا وطنيا رسميا قبل نشيد قسما)، ومنه (*اللهب المقدس، ص: 104*):

فِــداءُ الجزائـر روحِـي ومالي   أَلاَ في سبيــل الحريهْ

فَلْيَحْيَ (حزبُ الاستقـــلال)   وَ(نجمُ شمال افريقيهْ)

وَلْيَحْيَ شبَـابُ الشعبِ الغالي   مِثالُ الفِدا والوطنيهْ

وَلْتَحْيَ الجزائرُ مثــلَ الهلال   وَلْتَحْــيَ فيها العربيهْ

.. فَلسْـنا نرضَـى الامتــزاجـا   ولسنا نَرضـى التجنيسا

وَلسْـنا نرضَـى الاندِمَـــاجا   ولا نَرتَـــدُّ فَرنسيسا

... أَلاَ في سبيـــــــــلِ الاستقـــــــــــــلالِ

أَلاَ في سبيــــــــلِ الحــريّـــــــــــــهْ

ولنتذكر أن هذا النص قد انتشر وصار نشيدا يردده جميع أفراد الشعب في كل المناطق. وفي 1937 كتب أيضا وهو في سجن بربروس: (*اللهب المقدس، ص: 84-85*):

اعصِفــي يا ريـــــاحْ   واقصِفــــــي يا رعـــــودْ

.. أدخِـلُونا السجون   جَرِّعُـــونا المَـنون

ليسَ فِيــنا خَــؤُون   يَنثَــني أو يَهُــون

أَجِـلِدوا ...   عَـذِّبُــوا ....

واشنُقُـوا ...   واصْلِبُـوا ....

واحرِقُــوا ...   واخْرِبُــوا ....

نــحنُ لا نَرْهَـــــــــبُ ....

لا نَمَــلّ الكفـــــــــاح   لا نَمَـــــلُّ الجهـــــادْ

في سبيــــــــل البــــــلادْ

إن كل العناصر المشكلة للنص تنتمي إلى الفضاء الثوري، بل إن السجن سيتحول الآن إلى جزء أساسي من شعر الثورة الجزائرية. لقد اكتشف مفدي زكرياء معادلات الصورة الثورية (الرياح العاصفة – الرعود) وأفعال الأمر الطلبية المكررة بإيقاع واحد ثابت هي تعبير عن التحدي والهزء كذلك، لأنها تنتهي عند الاصرار (نحن لا نرهب). وبعبارة أخرى لقد انطلقنا ولن نتوقف.

ويبدو أن نشيد (من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا) كتبه المرحوم محمد المحبوب اسطمبولي (*1913–2000*) سنة 1940 (وليس محمد العيد ولا مفدي زكرياء) وقد كتبه للكشافة الاسلامية الجزائرية الذين أنشدوه في الجبال أول مرة، وهو نشيد ثوري قوي قد لا نتخيل أنه كتب قبل الثورة.

لقد كانت مجازر 8 ماي 1945 الرهيبة نهاية عهد وبداية آخر. لكن الشعر لم يسجل شيئا عنها خلال حدوثها، وللباحثين تفسيرات متقاربة للموضوع (*ينظر: محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص: 94، وعبد الله الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث، ص: 33 ومحمد العيد تاورتة: صدى أحداث 8 ماي 1945 في الأدب الجزائري المعاصر، مجلة الثقافة، 2007، ص: 94، و...*). وكانت بالفعل جرائم لا نظير لبشاعتها وفاشيتها، لكنها بداية الميلاد ففيها رفع العلم الوطني لأول مرة، ففي قصيدة مالك حداد (*1927–1978*) في قصيدته (في يوم هو الثامن من مايو) كتب يقول (*الشقاء في خطر، صدر سنة 1956، ص:40*):

لِأَصدقائي عُـيون رأيتُـها غاضبـهْ،

لأصدقائي عُـيون لَمَحْتُـها دامعــهْ،

أصدقائي الذين يَخِيطون العَلَم الوطني.

ربما يكفي هذا المقطع لندرك كيف تجمع الغضب والدمع وخياطة العلم الوطني في ذهن الشاعر. ورغم أن تتبع القصائد التي كتبت حول وبعد 08 ماي يطول (*ينظر: حكيم سليماني: صدى أحداث 08 ماي 1945 في أدبيات الحركة الوطنية الجزائرية، ماجستير نوقشت بجامعة قسنطينة، 2006/2007*) إلا أنها فعلا بداية الفن الثوري رغم أن شهر ماي حوله الشعراء إلى شهر قبيح كما يقول الربيع بوشامة.

ويمكن أن نقرأ خارج مجازر 08 ماي قصيدة محمد العيد التي نشرها سنة 1951 أبرز نموذج عن نضوج الحركة الوطنية وبلوغها مرحلة التحرير النهائية، يقول(*الديوان، ص: 339 وسعد الله، م س ص: 45*):

الأَسْــرُ طَــالَ بِكُمْ فطَـال عَناؤُكُــم   **فُكُّـــوا القيودَ وحَطِّمُـــوا الأَغلالا**

والشعـبُ ضَجَّ من المَظالم فانشُدُوا   **حُريّـــةً تَحمِيـــهِ واستِقـــلالا**

لا أَمْــنَ إلا في ظِـلالِ مُـرفْــرِفٍ   حُـرٍّ لنا عالٍ يُـنِيـر هِـــلالا

مِـنْ فَوقِ جُـندٍ بالعَـتيد من القـوى   **يَـلقَى العدوَّ ويَصمُــدُ استِبْسالا**

وإذا أراد الشعـــبُ، نَـــالَ مُرادَهُ   ولَـوَ أنَّــه كَالنجمِ عَـزَّ مَنَـــالا

اللـهُ في عَـوْنِ الشعوب فمَـن يَرُمْ   تَعْــوِيـقَها بالقَـــمعِ رَامَ مُحـالا

"ولعل محمد العيد أول من صرح بالاستقلال والحرية والعلم والجيش الوطني" (*سعد الله، م س، ص: 45*)، لكن شواهد أخرى كقصائد مفدي زكرياء السابقة قد لا تبيح هذا الاستنتاج. لكنه بالفعل خطاب جريء لم تعهده الساحة الأدبية الجزائرية آنذاك. ومن الضروري ان نلاحظ المكونات الأساسية لفكرته، فهو يبين للشعب الجزائري أنه مأسور في سجن، وأن هذا السجن قد طال، واشتدت المظالم، ومنه يستنتج حتمية وحصرية الحل الثوري العسكري والانفصال التام الذي يرمز له بالعلم المرفرف عاليا خفاقا على كتائب مجاهدة. إن مصطلح الشعب وظف بطريقة مختلفة تماما، فلأول مرة يحضر (الشعب) في النص كصاحب الأمر، وكمعني أول، وكصاحب الحل، وإرادته تبلغ حتى النجوم، لأنها من إرادة الله، لايقضي عليها القمع والوحشية.

وكتب أحمد سحنون (*1907– 2003*) قصيدة (روح باديس) في ذكرى وفاة عبد الحميد بن باديس تسودها نبرة تحريضية قوية (*البصائر، عدد 187، سنة 1952، ص: 7*):

آنَ أَنْ يَـهجُــرَ الكَرى الأحـرار   ويَثُـــوروا لِـحقّهِم ويَـغَــاروا

آنَ أَنْ تَحْطِــمَ القيُــودَ بـــلادٌ   ذلَّ فيها ابنُــها، وعَزَّ الجـارُ

روحُ باديس في دمائِـكَ قد ضـجَّـــــــتْ، فَفِيـمَ الوَنَـى وفيــمَ القَرار

.. ثُرْ على القيد في الحياة فقد ثـــــــــــــار عليه آباؤكَ الأحرار

لا تَـخَـفْ واشِـيًا ولا كَيْدَ باغِ   إنما الخوفُ في الشعـوب بَـوَارُ

يشعر القاريء الآن وقبل نحو عامين عن الثورة أن الشاعر أدرك أن الجو صار ملائما للعمل الثوري المسلح وأن نضال ابن باديس وزملائه في الحركة الوطنية قد أتى ثمرته، ولهذا يركز على حينية الزمن (آنَ) ويحرض الشعب ليقتدي بأسلافه الثوار الأحرار، ويكسر قيوده دون خوف.

لقد بدأ إذن شعر ينتمي إلى دائرة الشعر الثوري قبل 1954، بالنظر إلى مضمونه الذي تبنى القطيعة مع الماضي في العلاقة مع المستعمر أو في استشراف حل للشعب الجزائري بنبرة عالية، وشكك أيضا في جدوى النضال السياسي بمختلف أشكاله انطلاقا من اقتناع الجميع برفض فرنسا لأي حل مهما كان بسيطا، ولعدم وفائها بكل وعودها وحتى التزاماتها القانونية التي أصدرتها بنفسها. **إنه برنامج مختلف ومشروع جديد يلتقي مع برنامج الحركة الاصلاحية والحركة الوطنية في الغايات والمباديء لكنه يختلف عنه في الرؤيا والأهداف والوسائل، وبذلك يكون العمل الوطني**

قد انتقل من النهضة والتنوير والاصلاح والايقاظ الجماهيري إلى الثورة (*للتوسع ينظر: عز الدين إسماعيل، الشعر في إطار العصر الثوري، ص:45 وما بعدها*). إنها آلية منطقية، أي أن "الثورة ميلاد جديد ككل ميلاد.. تسبقه عمليات تاريخية كثيرة معقدة ومتداخلة.. فالشعر تسجيل رائع للثورة وهي ماتزال جنينا إلى أن تولد، وحين تخرج موفورة القوة إلى الحياة يكون الشعر أول من يستقبلها ويهش لها.. ألم يشارك الشعر نفسه في وضع بذرتها وفي تعهدها" (*عز الدين إسماعيل، م س، ص:88*).

في العددين 290 و291 من جريدة البصائر في 22 ثم 29 أكتوبر 1954 أي **قبل يومين من اندلاع الثورة التحريرية** نشر مقال مطول عنوانه (الحالة المفزعة للقطر الجزائري – كما تراها مجلة بلجيكية كبرى–) اختتم الصحفي البلجيكي مقاله بما يلي: " *أقول أخيرا، إنه إذا لم تغير الحكومة الفرنسية سياستها في القطر الجزائري، رأسا على عقب فإنه يكاد يكون من المسلّم به أن الشعب الجزائري سيعمد إلى مثل ما عمد إليه الشعبان: التونسي والمراكشي،* ***ولربما وقع الانتفاض أسرع مما يظن،*** *ولئن وقع هذا (ونحن لا نتمنى ولا نرجو وقوعه)* ***فإنه سيكون مزعجا فظيعا، لأن كمية الآلام المخزونة فظيعة هائلة***". وقد وقع *الانتفاض* فعلا وتغير مسار تاريخ البلاد.

لقد بدأ الكفاح المسلح وانتهت مرحلة النضال السياسي؛ إذ ثبت عدم جدواه كما قال مصطفى بن رحمون (*1921–1984*) (*ديوان ابن رحمون، ص: 157*):

شَكَوْنا الظلمَ بالأقـــلام دَهرًا فَلَمْ نَظفَرْ مِنَ الشَّكوَى بِزاد

ولَم نَــرَ للتَّظلُّمِ مِـن جَـوابٍ سِوى إغراقِهم في الاضطهاد

لقد قُدمت دراسات كثيرة عن الشعر الجزائري في فترة الثورة التحريرية، وقد يكون ضروريا توجه البحث إلى عدد من القضايا التي ارتبطت بهذا الأدب أو انبثقت عنه، ورغم أن عملية تجميع نصوص تلك الفترة (والتي قبلها) قد عرفت بعض التحسن، إلا أن العمل مازال كبيرا لجمع ما هو متناثر في سنوات من المجلات والجرائد الجزائرية والعربية بل والأجنبية. إن هذه الفترة مهمة جدا؛ كونها بداية فعلية للأدب الجزائري المعاصر، وظهور تجارب جديدة (كالشعر الحر)، إضافة إلى موضوعات مازالت متواصلة إلى الآن. فقضايا مثل الثورية والجهاد والشهيد والوطن وشخصيات الثورة والوحدة والأمكنة كالجبال والسجن والمرأة، وصورة الثورة وأثرها في الشعر العربي، ثم هناك قضايا كثيرة تتصل بالناحية الفنية والأجناسية والايديولوجية وكذلك مسائل التلقي والتأويل.. إنها بالفعل مرحلة مكتظة وما تزال ورشة مفتوحة أمام الباحثين..

وبغض النظر عن كل ذلك، فإن تيمات أساسية شكّلت شعر الثورة، من أهمها الزمان (شهر نوفمبر)، والأمكنة (الأوراس – السجن...) والوطن أو الجزائر وغيرها ...

لقد تمت أسطرة أول نوفمبر، وهو بالفعل أسطورة، ومعجزة، فقد كان اليأس التام قد أصاب الأمة الجزائرية، بسبب طول مدة الاحتلال واستقرار المعمرين بالجزائر وتنوع خططهم وقسوة المذابح. فتخيل يوم للثورة ضد فرنسا كان مجرد وهم من الأوهام والأحلام البعيدة، وقد كتب محمد الخضر السائحي(*1918- 2005*) قصيدة شهيرة مطلعها:

كان وَهْمًا وكَانَ حُلْمًا بعيدا أن نُناجِيكَ يا نوفمبر عِيدا

وتَعودُ الدموعُ فيكَ ابتساما ويعُودُ النَّشِيجُ فيكَ نشِيدا

قُلْ لِيُولْيُو هنا نفمبرُ بَاقٍ خَلَّد النصرُ مَجدَهُ تَخليدا

وبعد انطلاق الثورة وحرائقها لم يكن في البال أن يتحول نوفمبر يوما ما إلى عيد، والدموع إلى ابتسام، وتتحول النياحة فيه إلى نشيد. إن تمرد مجموعة من الشباب ضد أحد أعظم الجيوش وضد إدارة دولة استقرت طيلة قرن وثلث كرست وفرضت الذل والخضوع وحاربت ودمرت كل عناصر الحياة والقوة في الشعب يبدو مجرد مغامرة خاسرة، وانتصاره هو أسطورة أو معجزة. لكن الانسان المقاوم كان قد حصل على حريته بمجرد تبنيه للفعل الثوري.

إذن، تتحقق المعجزة في لحظة التمرد وانبثاق العمل الثوري بوصفه تحررا وانعتاقا، هذه اللحظة فريدة في التاريخ ارتبطت -كما سبق- بمعنى المعجزة، ومن هنا تمتزج بدلالات القداسة **فتكون زمنا مقدسا**، أو (ليلة قدر) كما يعبر عنها مفدي زكرياء (*كتبها في سجن البرواقية 1957- وألقيت بتونس 1957- اللهب المقدس، ص: 30*):

دَعَا التاريخُ لَيْـلَكَ فَاستَجابَـا (نُفَمبَرُ) هلْ وَفَيْتَ لنا النِّصابا

وهلْ سَمِعَ المُجيبُ نداءَ شعبٍ فكانتْ ليلَـةُ القَدْرِ الجَـوابا

تَبَارَكَ لَيلُـكَ المَيمُـون نَجْما وجَلَّ جَلالُهُ، هَتَـكَ الحِجابا

زَكَتْ وَثَباتُهُ عن ألفِ شهـرٍ قَضَاها الشعبُ يَلْتَحقُ السَّرابا

تَجَلَّى ضاحِكَ القَسَمَات، يَحكِي كَواكِبُـهُ قَنابلَـها لُهَـابا

بِنَاشئةٍ هُناكَ أشَدُّ وَطْـأً وأقْـوَمُ مَنطِقًا، وأَحَدُّ نَـابا

مَضَتْ كالشُّهْبِ، وانحدَرَتْ شَظايا تَلَهَّـبُ في دُجُنَّتِها التِهَابا

مَلائِـكُ بالفَواتِـكِ نَـازلاتٌ بإذنِ الله، أرسلَهـا خِطَـابا

وهَـزَّتْ ثـورةُ التحريـر شعبًـا فَهبَّ الشعبُ يَنْصَبُّ انصِبابا

تَنَـزَّلُ رُوحُها مِن كلِّ أمْـرٍ بأحـرار الجزائر قَد أَهَـابا

..وقال اللهُ كُـنْ يا شعْبُ حَرْبًا عَلَى مَن ظَلَّ لا يَرعَى جِنـابا

وقال الشعبُ كُـنْ يا ربُّ عَونًا على مَن باتَ لا يَخشَى عِقابا

فَكَانَ وكَـانَ، مِن شَعْـبٍ وربٍّ، قَرارٌ، أَحْدَثَ العَجَبَ العُجَـابا

لقد تجمعت كل العناصر التي تؤسس قدسية اللحظة (الزمن) من خلال شبكة ضخمة من النصوص (الدينية والقرآنية أساسا) التي ظلت آثارها محفورة داخل القصيدة، ووظفها الشاعر لتلعب دور المراجع التي تقود القاريء وتؤطر إدراكه وانفعاله. فمفدي لا يلجأ هنا إلى الخطابة والتحريض المباشر، وإنما يكرس قدسية الثورة بإعادتها إلى الإرادة الالهية، فهي ليلة القدر التي سمع الله فيها نداء شعب فاستجاب، فكان القرار من الشعب والله معا. **لم يعد الشعب الجزائري ضعيفا** إذن، لكن كيف تكون إرادة الله من إرادة الشعب؟ إن الاجابة ترد على مستويين؛ الأول متعلق بجبروت الاستعمار واستمراره في الظلم والاستعباد، والثاني متعلق بسلوك الشعب نفسه، إذ أدرك أنه إذا غيَّر ما بنفسه غيَّر الله ما به، وإذا كانت ليلة القدر خير من ألف شهر، فإن ليلة أول نوفمبر خير من ألف شهر قضاها الشعب يلاحق سراب وعود المحتل، فالشعب ينسجم مع إرادة الله ويستجيب لها، ولهذا لا يخذله الله.

وهي نفس الفكرة يستعيدها فيما بعد، حين ويقول (*إلياذة الجزائر، ص: 69*):

تَـــأَذّنَ ربُّـــكَ ليلـةَ قَـــدْرٍ　　　وأَلقَـى الستـار على أَلْفِ شَـهرٍ

وقال له الشعبُ: أمْـركَ ربِّـي　　　وقال له الربُّ: أمْـركَ أمـري!!

وَدَانَ القصَاصُ فرنسا العَجوزَ　　　بما اقتَرفت مِن خِداعٍ ومَكــــرٍ

.. نفمبرُ، غَيَّـرتَ مَجْـرَى الحياة　　　وكُنـــتَ نفمبـرُ، مَطلعَ فَجـرٍ

وذَكَّـرْتَـنا في الجزائر بَـــدرًا　　　فقُمْـنا نُضاهِي صَحابةَ بـــدرٍ

.. نفمبرُ، جَـلَّ جَلالُكَ فيـنا　　　أَلسـتَ الذي بثَّ فينا اليقينـا..

لقد ترسخ إذن أن الثورة قدسية إلهية تنزلت من السماء، مثل المسيح كما يقول (*إلياذة الجزائر، ص: 68*):

هُمُ الثَّائــــرون الأُلَـى وَلَـدُوا　　　نُفَمبرَ مِن صُلبِهم، فاستَقـامْ

مَتى نَزَلَتْ ثورةٌ من سمـــاءٍ　　　نُـزولَ المسيحِ عليه السَّلام ؟!

فالثوار الأوائل الذين عملوا للثورة قبل انطلاقها، هم من أنجبها، من صلب طاهر نضالي، لكنها ولدت كالمسيح روحا إلهية تنزلت من السماء؛ أي معجزة. لا تختلف عن معجزات عهد النبوة (*اللهب المقدس، ص: 309*):

وَحدَّثَـنا عن يومِ بَـــدرٍ محمـدٌ　　　فَقُمنَـــا نُضَـاهي في جزائرنا (بَدرا)

تَباركتَ شهرًا بالخوارقِ طَـافِحًا　　　وسُبحَانَ مَن بالشعب في ليلِهِ أَسْـرَى

ولهذا تستحق لحظة نوفمبر التمجيد، لقد كتب صالح خرفي (*1932–1998*) في1960 قصيدة: نوفمبر (*أطلس المعجزات، ص: 169*) سار فيها على نفس المنوال، وأحس باللحظة التي ولدت فيها المعجزة، ومنها:

بَايَـعْـتُ مِن بين الشهـورِ (نفمبرا)　　　ورَفَعتُ منهُ لصوتِ شعبـيَ مِنبرا

.. وَانْـدَاحَ فَجرُكَ عن مَصَبٍّ مِن دَمِ الْـــــــــأحْرارِ، فَانتَعـشَ الجَديبُ وأَزهَــرا

خَبَّــأتَ مُعجِزةً تَمَخَّضَ لَيلُكَ الدَّا............جِي بها، والأرضُ في سِنَةِ الكَرَى

فعكس ما رأيناه من كره ومقت لشهر ماي، فإن نوفمبر سيكون الشهر الأفضل؛ لأنه لحظة الميلاد والحياة، ولهذا يمجّد. لكن عظمته في ليلته التي تمخضت عن المعجزة.

توضح قصائد أخرى لمفدي زكرياء قدسية زمن نوفمبر، ففي الذكرى الرابعة للثورة، يستعيد في زنزانته جلال الشهر فيتوجب عليه الوقوف أمامه (*كتبها في سجن البرواقية 1958، اللهب المقدس، ص: 57*):

هذا (نفمبرُ) قُـمْ، وحَيِّ المِدفَـعا ... واذْكُـرْ جهادَكَ والسنينَ الأربَـعَا

واقْـرَأْ كتابَـكَ للأنامِ مُفصَّـلاً ... تَقْـرأْ به الدنيا الحَـديثَ الأَروعَا

.. إنَّ الجزائـرَ قِطْعـةٌ قُدسيَّـةٌ ... في الكَوْنِ لَحَّنَها الرصاصُ ووَقَّـعا

وقَصيدةٌ أَزَلِيَّـــــة، أبياتُـها ... حَمْـراءُ كان لها (نفمبرُ) مَطلَـعا

نَظَمَتْ قَوافِيها الجَماجمُ في الوَغى ... وسَقَـى النَّجِيـعُ رَويَّـها فتَدفّـعا

غَنَّى بها حُـرُّ الضميرِ فأيقَظَـتْ ... شعبًا إلى التحرير شَمَّـرَ مُسـرِعا

في هذه القطعة تتضح كل العناصر وتلتحم، **نوفمبر والتضحيات والجزائر**. وبالنسبة إلى التضحيات فإن الشعر الجزائري الثوري المقاوم أثناء وبعدها صرف أجزاء كثيروة منه لتصوير التضحيات الجسام من أجل التحرير، فهي مرتبطة بفعل المقاومة أيا كان عصره، ومرتبطة أيضا بالمدلول القداسي (للجهاد) من أجل تحرير الوطن، وهو المعنى الراسخ في العقيدة الاسلامية وفي ثقافة الانسان الجزائري التي تأسست عبر قرون من مقارعة المحتلين. فعبارات مثل (اذكر جهادك) (اقرأ كتابك) تحيل القاريء على القرآن الكريم وقداسة فعل المقاومة، لكنه يشكل الصورة من عناصر التاريخ أي من الصور القاسية لمجازر المستعمر ودمويته (الرصاص، حمراء، الجماجم، النجيع). لكن كيف تجمعت العناصر؟ يبدو أن مدلول (الجزائر) هو النواة التي تدور حولها الأجزاء. فهي (قطعة) و(قصيدة) مطلعها (نوفمبر) أبياتها (حمراء) نظمت إيقاعها (الجماجم) وسقاها (الدم)، فإذا تغنى بها الأحرار فإنها توقظ الشعب. ومن هنا كانت الجزائر (قدسية).

تغطي الآلام والعذابات مساحة ضخمة من الشعر الثوري، وهي رصيد للشعب الثائر ومفخرة له، يقول محمد الصالح باوية (1930–..) *(أغنيات نضالية، ص: 51)*:

أَقسَمتْ أُمّي بقَيـدي، بجُروحِي، سوف لا تَمسَحُ مِن عيني دُموعـي

أَقسَمتْ أن تمسحَ الرّشّاشَ، والمِدفَـع، والجُـرحَ، بمِنديل دُموعـي

....

قَهقَه القيدُ برجلي يا رفاقي، حدِّقوا...

فالثأرُ يجترُّ ضلوعي

يا جنونَ الثورة الحمراء يَجترُّ كياني ومغارات

رُبوعي

أَقسَمتْ أمي بقيدي, بجروحي، سوفَ لا تمسحُ

من عيني دُموعي

أَقسَمتْ أن تمسح الرشاش والمدفع والفأس

بأحقاد الجموع.

لكن صورة الآلام إنما تكتمل مع دلالة التضحية في صورة (الشهيد)، والكلمة نفسها غير محدودة داخل النص الثوري؛ إذ تستدعي علائق متعددة كالدرجة الدينية والتضحية العليا المطلقة والثبات والانتصار على الألم، وكذلك الولاء الأسطوري للقضية ونحوها. ومن الهام أن نلاحظ أننا بصدد تجميع عناصر القداسة والأسطورة، وهذا طبيعي لأن الشهيد هو جزء من صورة الثورة كما سبق وأحد رموزها. ويمكن – لأجل الفهم– أن نسأل كيف نتصور أحمد زبانا؟، إن قصيدة مفدي زكرياء (الذبيح الصاعد) (*كتبت لحظة إعدام الشهيد 1955، اللهب المقدس، ص: 9*) قضت نهائيا على صورة زبانا الانسان البشري العادي وحتى المقاوم، وقدَّمته أسطورة جديدة تضاف كعنصر بَانٍ ضمن عناصر الفكرة والصورة الثورية. لقد دمج مفدي في نصه كل الامكانات النصية من أجل أسطرة صورة الشهيد، وبغض النظر عن عنصري الدين والوطن، إلا أن القطعة تركزت على عنصري (الصعود والايقاع)، وبالفعل تتوالى أفعال وكلمات تسير نحو حركة تصاعدية (قام– شامخا– رافعا– رافلا– وتسامى– وامتطى معراجا – وتعالى..). لكن القارىء لا يشعر بالحركة جامدة أو منعزلة وكأنه يسير صاعدا لوحده، بل إننا نشعر بموكب يصعد نحو السماء وهو ما يفسر ارتباط حركة الشهيد نحو المقصلة بأجواء الأسطورة والممارسات الدينية (يتلو النشيد– يناجي– رغردت– لحن فضاء بعيد– تعالى مثل المؤذن– يتلو كلمات الهدى..). ولتكتمل الصورة بين مفدي أنه لا يؤمن أن الشهيد قد مات، بل إنه مثل عيسى، لفّه جربيل تحت جناحيه وصعد به إلى المنتهى. ﴿*وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ*﴾ .

لقد لازمت صورة الجزائر الشعر الوطني منذ القرن التاسع عشر، لكنها ارتبطت مبكرا بمدلول الجهاد وبهمجية الاحتلال، لكن العناصر التراثية كانت أساس الصورة أي العناصر التي طالما كونت قصائد الاستصراخ وسقوط الدول ويكون المركز في تلك القصائد: ضديات (الكفر/الاسلام)– (والبناء / التخريب)– (التراث/الطمس)– (الشرف/الإذلال)– (الصون/انتهاك الحرمات)... وفي نصوص الأمير عبد القادر التي تتمركز فيها ذاته كقائد وزعيم ومنقذ لا تبدو واضحة المعالم إلا من خلال الاستنجاد والفخر ومسميات الأمكنة. لكن حركة الإصلاح والحركة الوطنية بشكل عام **أعادت بناء صورة أكثر حيوية وفق استرتيجيتها في بعث الذات الجزائرية وضم عناصرها، فتبلور مفهوم (الوطنية) واحتل المكان (الجزائر) فيه المركز**. كان الهدف بعث الوعي من خلال إعادة الوطن إلى الشعب ليحس ويؤمن بامتلاكه ويدرك غربته في بلده ويفهم تمايزه عن الآخر المحتل الذي تسبب في كل مآسي الوطن وتسبب خصوصا في حرمانه منه.

وهكذا تأسس مدلول جديد للمكان (للجزائر– الوطن– البلاد) ولم يعد في إمكان الجزائري أن يتلقى اسم (الجزائر) معزولا عن دلالات الثقافة والتاريخ. لقد انبثق معنى أسطوري مثالي ومجرد عن الآلام والقهر ومجرد من الجغرافيا والوثيقة الإدارية وأكبر من كل ذلك وأعمق. إن الشعر الثوري بنَى من أجل المتلقي صورة أخرى للجزائر، كانت دائما مغرية ناصعة وسامية، مهما دفع فيها من ثمن فهو قليل. وقد اشتهر شعر مفدي بقصائد ومقاطع عديدة قدم فيها صورة أسطورية للجزائر ولعلاقته بها، فهي مطلع المعجزات، وحجة الله ، وبسمة الرب ووجهه، وأسطورة القرون، وبدعة الفاطر، وبابل السحر، والجنة، وعروس الدنيا، ومصدر نور الصباح، ووجه الله، ومهبط الوحي، ومعبد الحب.. (*إلياذة الجزائر، من ص: 19*).

نسج مفدي علاقات داخل الصورة تقوم على الادهاش وعلى المستحيل وعلى كسر المألوف. فمن الصعب جدا تصور علاقة عادية نعبر عنها بهذه الصورة فهي علاقة أقرب إلى (إحساس صوفي) يشعر ويرى ولكنه لا يجد في الكلمات العادية والصور المألوفة أو المصاغة بأدوات عادية ما يقوى على نقل ما يراه.

لقد كتب مالك حداد في (*الشقاء في خطر، ص: 35*):

للوطن في أرضنا طعم الغضب

.. للوطن في أرضنا طعم الأسطورة.